قصة قصيرة

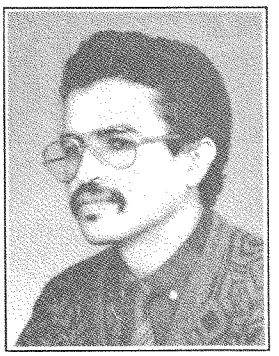

عثمان أشقرا

نـــاسُ السِّيْـرك

أول من يستيقظ ـ دائماً ـ هو الأمير العيَّاشي، قاهر الحديد وقاطع السَّلاسل: يقفز من الكاراغان بخفَّة متكلِّفة يقوم بحركات رياضية تسخينيّة، يعرَق قليلاً، ثم ينطلق ـ راكضاً ـ بمحاذاة البحر فوق الرمل المبتلّ والمُتصلِّب وفعل المدِّ الليلي.

ثم تستيقظ السِّت بهية فَرَح، نجمة السيرك ومعبودة الجماهير. ويتبعها البطل علي بن الحسين، رجل الخطر وملاعب الموت كل ليلة في الهواء وفوق الدَّراجة النارية.

ـ صباح الخير يا ست الحسن.

ـ صباح الخير يا بطل الزمان.

تتثاءب الست بهيّة فرح قوياً، فيبين تَغَضُّن وجهها الخمسيني فظيعاً من وراء أثقال ماكياج الليلة ـ وكل ليلة ـ وتفرقع صوبيعاتها المنقوشة بالحنّاء وهي تنظر بلامبالاة جهة البحر العظيم والدَّاخِل جْواه الذي بالكاد يُسْمَع حسُّه ثم تنظر فوق ـ إلى السماء بلون حليب مهرس. وتطلب وقيدة من البطل علي بن الحسين.

ـ النهار يطلع بخير

ـ يطلع بخير والبحر مقطوع الحَسّ كأنه صائم.

ـ البحر داخل جْواه واللي يَحسُّهُ يَحسُّهُ لوحده.

ـ ما هذا الكلام بالمعاني، في هذا الصباح الباكر! يا ست الحسن؟

ـ ما عارْتْ. مرة مرة أَخَرْبق فتطلع الفكرة بخير. هل انتبهت أمس إلى الأمير العياشي؟

ـ نعم. لكنه زطّطَّ روحه في الأخير وقطع السلسة ولم ينتبه الجمهور أو يرَ شيئاً.

ـ الجمهور لا يرى ما نراه نحن. سأشعل فتيلة أخرى.

وقال البطل علي بن الحسين في سرّه: هذه المرأة تَكْمِي كأنها موتور محروق. ونظر جهة الدراجة النارية التي عليه الآن أن يبدأ ـ ككل نهار ـ في تفكيك وتزييت أجزائها. وفجأة انتبه: هل الست بهية فرح هي وحدها الموتور المحروق هنا؟ واستغرق تماماً في النظر جهة الدراجة النارية القابعة هناك كطائرٍ خرافي واستولى عليه شعور غريب هو مزيج من القنوط والاستسلام: إن حال هذه الحديدة التي يركبها كل ليلة، ليصارع فوقها الموت، بدأ يقلقه. فمرّة مرّة يحس أنها بدأت تخونه، وفي يوم ما ـ بدون شكٍ ـ سَتَخْوِي به تماماً. وتحسَّس بعضَ أطراف جسمه وفكر: يومياً أفكُك، وأزيِّت، وأعيد تركيب هذه الحديدة المتهالكة. أما الجسم. والروح... وضحك في خاطره: هل صرت أنا أيضاً أتكلم بالمعاني والغَوْص مثل الست بهية فرح؟

وقالت الست بهية فرح كأنها تستأنف حواراً لم ينقطع:

ـ الجمهور لا يرى ما نراه نحن، لذا فهو وحده يصرخ ويصَفِّق ويثرثر. اعْطِني أشعل فتيلة أخرى يا بطل الزمان.

واستيقظ المعلِّم بَاقْشِيش مهرِّج السِّيرك ومضحك الجمهور فاستيقظت معه الحركة: طَاقْ، طَرْطَلاَّقْ، اطلعْ، اهبطْ، كَاخْ كاخْ، مِنين أنا ومنِينْ أنتَ، يا دنيا يا غرامي... وفاحت رائحة القهوة اللذيذة التي راح المعلم باقْشيش يطبخها.

ـ قهوة من يشربها يموت ومن لا يشربها يموت.

ـ ها رأسي اقطعه يا معلم واعطيني أتَقَهوى وأشوف آش ثمَّة.

ـ يا رأسي ومَا دَاز عليك وباقي.

ـ اللَّه يرحمك يا حسين يا سلاوي.

ـ اللَّه يرحمنا جميعاً: الأموات ماتوا وانتهوا والأحياء انتهوا وما ماتوا.

ـ ارحمونا يا ناس من حديث الموت والأموات في هذا الصباح الباكر وقلبوا الطَّبْيِل.

ـ اقْلَبِ الطَّبْيِل، يا بطل الزمان، أوْ لا تَقْلبه، يطلع دائماً هُوَّ هُوَّ. ها الأمير العياشي قد رجع.

وصل الرجل قاهر الحديد وقاطع السلاسل يلهث، ومرة مرة يسعل، لكن يُكابِر، ولا يتركها تطلع من صدره إلا بمقدار. وتبادل البطل علي ابن الحسين والست بيهة فرح نظرات ذات معنى فهَمَها المعلم باقشيش طائرةً فَهَمَّ بالتهريج كعادته، لكن أمسك في آخر لحظة وبلع: السماء صافية، والنهار يطلع بخير، والبحر داخل جْواه وبالكاد يُسمَع حسه ـ واللِّي ما سَترها تُقطَع يَدُّو.

وغاب الأمير العياشي داخل الكَارَاغان وسعاله يتحدَّى ويطلع ولا ينقطع. وانصرف المعلم باقشيش يدور حول نفسه، وحول الآخرين، ويغني مقطعاً بالشَّلْحَة. وانصرفت الست بهية فرح إلى إزالة ماكياج الأمس والاستعداد لوضع ماكياج اليوم ـ وهي تحرق السيجارة تلو السيجارة ولا تبالي . وانصرف البطل علي بن الحسين إلى تفكيك وتزييت وإعادة تركيب الدراجة النارية التي يركبها الليلة ـ وكل ليلة ـ ويصارع فوقها الموت ولا يبالي. وأمام البحر العظيم الداخل جْوَاه والذي بالكاد يُسمَع حسُّه، كان المعلم باقشيش، مهرِّج السيرك ومضحك الجمهور، مرة مرة يتوقف ويواجه الموج المستكين والفضاء اللانهائي ويرفع صوته أكثر وهو يغني ويردد مقطع الشَّلْحَة الذي يقول: «ع يَمَا كارْ كانكا تالونت دتقرْ قاوين. ٤ اريبْلومِّين كانسكا! ٤ ينَّا: «سدَّادُ ونيبت ! شدّا ودونيت!» شرار تالونت إرْواذْ ٤ إرواذْ!»... وترجمته: اجتمع الطبل والبندير والقراقيب. فقال الطبل متشائماً: ضاعت حياتنا! ضاعت حَيَاتنا!» فردَّ البَنْدير متفائلاً: إذا ضاعت سَنَردها! إذا ضاعت سَنَرَدّها!» وهتفت القراقيب لامبالية: لتَذْهب إلى الجحيم! لتذهب إلى الجحيم!».